مقدمة كتاب (مكاشفات - الجزء الثالث)

بقلم: حمد بن عبدالله القاضي *

** نادراً ما أقدِّم لكتاب.

ذلك أولا لقلة بضاعتي من جانب، ومن جانب آخر رفع الحرج عن نفسي تجاه أولئك الأحبة الذين يحسنون الظن بي وبقلمي المتواضع.

ولكن هناك (استثناءات) أجدني أحياناً مدفوعاً إلى تجاوزها في تقديم كتاب ما، ومن هذه (الاستثناءات) هذا الكتاب الذي بين يديكم (مكاشفات - الجزء الثالث) لمؤلفه الصديق د. عبدالعزيز بن محمد قاسم.

ذلك أن هذه المكاشفات تستحق أن تُوَثَّق في كتاب، فهي (عمل ثقافي وإعلامي) متميز وثّق لسيرة وآراء عدد من الفاعلين والمؤثرين في عديد من المواقع الدينية والتربوية، والاجتماعية، والإعلامية، وقبل ذلك وبعده فإنني أحياناً أنهزم أمام رغبة (صفوة) أحبهم، فلا أستطيع أن أردّ لهم طلباً وفي مقدمتهم صاحب هذا الكتاب.

** إن من تابع هذه (المكاشفات) وأصداءها والتعقيبات التي جاءت بعد نشرها يشعر أن هذه (المكاشفات) تستحق أن تبقى في كتاب، لتضوع وفاءً وصدقاً وأثراً في عقول الأجيال المقبلة بدلاً من أن تضيع بين صفحات الصحف وأقبية النسيان.

لقد حوى هذا الجزء من هذا الكتاب ثلاثاً من المكاشفات أحسبها من أهم (المكاشفات الحوارية) التي نشرها ملحق (الرسالة) في صحيفة (المدينة)، وقد جاءت مع كلٍّ من الكاتبة والأكاديمية المعروفة د. عزيزة المانع، والمفكر والجراح بمشرطه وحرفه د. خالص حلبي، وأخيراً مع الإعلامي والكاتب المعروف د. هاشم عبده هاشم، وكل هؤلاء (أرقام متميزة) في ميادينها وعطاءاتها، حتى في اختلاف الناس حول طروحاتها..!

obeikandl.com

** إن من قرؤوا الحوارات معهم حين نشرها أو من سوف يقرؤونها في هذا السفر سوف تتكشف لهم جوانب مهمة في مسيرة وآراء هذه الأسماء الفاعلة في مشهدنا الإعلامي والثقافي سواء اتفقوا مع رؤاها أو اختلفوا معها في بعضها.

وقبل نهاية هذه السطور لا بد أن أشير إلى أن نجاح وإثارة هذه (المكاشفات) ما كان ليتم لولا قدرة واقتدار عرَّابها د. عبد العزيز قاسم الذي يقدم أنموذجاً للمحاور الذي يدرس سيرة وعطاء وجوانب المحاوَر كافة قبل أن يُقْدِم على منازلته في ساحة المكاشفة، فضلاً عن أن المحاوِر ابن المهنة والمتابع لطروحات أطيافها كافة في مختلف الميادين.

إنني أستشرف أن يستمتع ويفيد كل قارئ لهذا الكتاب، ذلك أنه يجيب على العديد من علامات الاستفهام التي كثيراً ما طرحها المتلقي لعطاءات هؤلاء الأعلام، ولعل المؤلف وفق كثيراً في طرح كثير من هذه العلامات بشفافية مضيئة بل وبشقاوة إعلامية محببة ارتاح لها المحاورون فأجابوا عليها، وسوف يأنس إليها المتلقون وهم يتابعونها.

تحية لكل عمل ثقافي وإعلامي تثرى به ساحتنا ويؤثر فيها، بل ويضيف إليها ويضيء بعض مسالكها.

* عضو مجلس الشورى السعودي

رئيس تحرير المجلة العربية

obeikandi.com

بين يدي الكتاب

بقلم: د. عبدالعزيز محمد قاسم*

عادة ما أبدأ مقدماتي في كتب المكاشفات بتسليط الضوء على سبب اختياري للشخصيات التي أوردتها في الكتاب، مع محاولة وصف لبعض المشاهد من مجريات الحوار، والتنويه إلى تلك الجزئيات الخاصة التي ربما تضيء بعض الزوايا الشاحبة، وتعطي صورة متكاملة لمن يحرص على معرفة ما ورائيات الحوار والشخصية..

وجرياً على هذا المنوال، سأبدأ بالأكاديمية الشهيرة د. عزيزة المانع، وقد صدّرتها في الكتاب توقيراً واحتراماً، إضافة إلى أن مكاشفاتها أحدثت عند نشرها لغطا وردود أفعال متباينة على الصعيد المجتمعي، فزميلاها في هذا الكتاب، الذي يشرف بهم جميعاً، د. خالص جلبي ود. هاشم عبده هاشم ربما كان أغلب المتابعين لمكاشفاتهما من النخب الفكرية والإعلامية بشكل خاص، بينما حظت ضيفتي العزيزة كعادتها بمتابعة وضجيج شرائح عدة في المجتمع خصوصاً شريحتي النساء والتيار الديني بسبب تلك المظاهرة الشهيرة بالرياض، التي شاركت فيها مع زميلات لها في أوائل التسعينيات الميلادية للمطالبة بقيادة المرأة للسيارة.

أتذكر بأنني سمعت باسمها لأول مرة عقب تلك المظاهرة، أو المسيرة بحسب النص الرسمي، وقد تصدّر اسمها المنشورات التي طبعت من قبل بعض المعارضين لتلك المظاهرة، وتشكلت لدي صورة ذهنية غاية في السلبية عن امرأة متحررة ومتعاونة مع السفارتين البريطانية والأمريكية، واللتان حضرتا بدورهما تلك المظاهرة، لإحلال نموذج المرأة الغربي في مجتمعي المتدين.

لازمتني تلك الصورة على مدى عقد كامل من الزمن إلى أن بدأت أقرأ وأتابع ما تكتب في زاويتها المميزة (أفياء) بصحيفة (عكاظ)، فيما كنت بالطبع أثناء القراءة

مرتدياً نظارتي القديمة التي بدورها بدأت عدساتها تعشى أمام واقع حقيقي مباشر، ويوماً بعد يوم اكتشفت أنني إزاء أكاديمية تتلفع الموضوعية، وتتمنطق العلمية، وتحاول جهدها أن تكون متوازنة، وبدأت الصورة الذهنية المسبقة تتلاشى، ومع وقفتها للدفاع عن المناهج إبان الهجوم الكاسح عليها من قبل بعض الأقلام الليبرالية تبددت تماماً تلك الصورة لتحل محلها صورة إيجابية عن كاتبة جعلت همها الدفاع عن المرأة وقضاياها في مجتمعي بحسب ما كفل لها الإسلام من حقوق.

وقد كتبت في ملحق الرسالة بتاريخ ١٣/ ٥/ ١٤٢٤هـ مقالاً عنونته بـ (النبيلة: عزيزة المانع) وأجدني مضطراً لسوق بعض فقراتها تأريخاً لتلك الحقبة، حيث جاء فيها: (أعطى الحدث الآثم الذي تعرض له مجتمعنا في شهره الفارط مساحة عريضة للجدل حيال التدين والدعوة والدعاة والمطالبات التي تتالت بتغيير أو تطوير المناهج التعليمية، وانطلق المتجادلون كلٌّ من أولوياته أو الفكر الذي يعتنق، وبلغ الجدل مستويات كاد أن يحدث تجاذبات مجتمعية حادة بعد أن شطّت بعض الزوايا الصحافية التي كتبت بانتهازية فاقعة للحدث، وحاولت تمرير فكر بائس فشل دوماً أن يقنع مجتمعاً محافظاً أو أن يجد له جذوراً في أرض الرسالة. وانتهى الجدل بكلمات حواسم سطّرت من نور وألق هذا الوطن الذي امتزج وقامت أركانه على منهج رباني متين، ودوّى بها صريحة سمو الأمير نايف بأن " هذه الدولة دولة الإسلام وستظل هيئاتها ومؤسساتها ومنها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما دام الإسلام قائماً في هذه الأرض". وأن "فصل الدِّين عن الدنيا أمر غير وارد أبداً، وأن دولتنا دولة عقيدة تتمسك بها كما وردت نصاً في كتاب الله". لتذكّر تلك الكلمات من كان غافلاً أو متناسياً بهذه المسلّمة الوطنية التي لم ولن تحيد القيادة أو المجتمع عنها مهما ادلهمّت الظروف..

في أتون تلك المعمعة والحملة على أشدها ضد التدين والدعاة كتبت النبيلة عزيزة المانع مقالاً في زاويتها "أفياء" بالزميلة "عكاظ" بعنوان بعض المصارحة ١٩/ ٣

أثار دهشة وارتياحاً، فأما الدهشة فبسبب اسم الكاتبة الذي كان للتيار المحافظ موقف منه إبان التسعينيات والمظاهرة النسائية الشهيرة لقيادة السيارة، وأما الارتياح فكان للسطور التي كتبت في المقالة الآنفة وأشعرت جميع من قرؤوها بأن ثمة إنصافاً وعدلاً وشجاعة أدبية ممتدة لكاتبتها).. وختمت تلك المقالة بقولي: (كلُّ ما أود تسجيله هنا توجيه رسالة للدكتورة المانع نصها: شكر ممتد لك أيتها النبيلة من دعاة قرؤوا مقالتك وأثنوا على هذه الفروسية والشهامة التي تجلت في سطورها. وقد أشعرت الكثيرين ممن يختلفون معك بأنك تتدثّرين الموضوعية في حوارك وخلافك معهم. وتمتعت بإنصاف افتقده كثير من الكتّاب الذين كتبوا ولمزوا بتلك الانتهازية التي رأينا، وأدبياتنا الإسلامية تأمرنا أن نشكر للناس وإن لم نفعل لم نشكر الله، فلقد كان نبلاً منك ما كتبت مع أن الفرصة كانت سانحة، واتجاه التيار في صالح كل مَن يريد أن ينال من روح التدين في المجتمع وقد فعلوا.. وكانت المقالة أيضاً درساً لبعض ضيقي الأفق الذين يحترفون المواقف الحدية والتصنيفية دون تروٍّ أو معرفة لأقدار الرجال والنساء لتقدِّمين درساً مجانياً لهؤلاء وأولئك..).

بالطبع وانتني فكرة المكاشفات من حينها مع أكاديميتنا الكريمة، وبقيت أمامي مشكلتان، أولاهما أنني في هذه المرة إزاء سيدة، وأنا الذي تربى في بيئة محافظة، ولم أجرِ حواراً في حياتي ولو عرضاً مع أية امرأة، والثانية إقناع د. عزيزة بالمكاشفات وفتح ملف تلك المظاهرة الشهيرة التي بلغت الآفاق، والدخول في تفاصيلها لأول مرة في الصحافة السعودية وبمنتهى الشفافية.

حزمت أمري ووافقت د. عزيزة على الحوار بعد أن شجعتها بأنني سأعيد إليها الحوار لتحذف ما تشاء أو تضيف، وحددت لي موعداً في منتصف رمضان من العام ١٤٢٤ هـ.

ما أتذكره أنني كنت وجلاً جداً بما لم أكنه قبلاً وأنا أخطو إلى منزلها، وقد تغشاني التوتر والحياء إلى أقصى مداهما، وأدركت تلك التربوية العريقة من وهلتها

ما يعتريني، فساعدتني بوقارها وتهذيبها وأدبها الجمّ على التخفيف من تلك المحنة النفسية، والمضحك أنني بدأت الحوار ومكثت لحوالي ساعتين وأنا أوجّه لها السؤال ووجهي إلى الطاولة، ولم أستطع أن أرفع عيني تجاهها لشدة الحرج الذي كنت فيه بالرغم من لبسها حجابها الشرعي، ووجود ابنها عبد العزيز معنا، ولاحقاً زوجها الدكتور الفاضل عبدالله المعيقل، لذلك لامني بعض الإخوة بأنهم افتقدوا روح السجال في الحلقة الأولى، ولم يعلموا بحالي مع هذه الأكاديمية المهيبة..

لا شك في أنني خرجت بدروس عدة من حوارها، وإن كان أهم تلك الدروس يكمن في سوء تصنيف الناس عبر انطباعات شخصية عوراء، وضرورة ترك مساحة لحسن الظن واحتواء من يخالفوننا في بعض القضايا، فالدكتورة عزيزة وجدتها والله من أكثر من عرفت محافظة وخلقاً، وإن كنت بالطبع لا أتفق معها وكثير من تياري الفكري في بعض القضايا التي تطرح، لكن ذلك لا يسوغ لنا أبداً أن نخندقها رغماً مع المتحررات أو الملتاثات بفكر التحرر الأعمى..

أختم هذه الجزئية بشكر مستفيض لتلك الضيفة الوقورة على ما أكرمتني به من حوار شفيف وراقٍ.

*****

أما الدكتور خالص جلبي، فكانت أولى مفاجآته التي أذهلتني بأنه من إخوتنا الشوام العاملين في مدينة بريدة في منطقة القصيم، ولم أخف شعوري وأنا ألتقيه عن تعجبي من ذلك وصبره على المنطقة وقبل ذلك صبر أهل المنطقة عليه وهو صاحب أفكار لا تتساوق أبداً والفكر السائد هناك، وقد أجابني ساخراً بما ستقرؤونه في مكاشفاته.

الرجل معين لا ينضب من الأفكار والمعلومات المزدحمة، ولا تسأله عن شيء حتى يبادرك بإجابة سريعة فيها عمق علمي وقراءة واسعة وقبلهما سخرية دائمة لا

تفارقه أبداً، ولا تتلاشى إلا عندما يتحدث مع السيدة الوقورة حرمه، وهي الأخت الفضلى خالدة سعيد يرحمها الله، التي حضرت معنا الحوار بكامله، وبسطت شخصيتها الحديدية على أجواء الحوار، وهي بالمناسبة شقيقة المفكر السوري المعروف جودت سعيد صاحب نظرية السلم.

يبقى أن ما علق بذاكرتي المهترئة من ذلك الحوار هو روح د. خالص التشاؤمية والساخرة من كل ما يمت بالعرب والمسلمين، التي غلَّفت معظم إجاباته، ويقيناً لديّ بأن هذه الروح السوداوية انتقلت إلى جاره وصديقه الأستاذ إبراهيم البليهي الكاتب المعروف.

الأمر الآخر الذي لفت انتباهي في الدكتور خالص هو إيمانه بشكل أو بآخر بنظرية داروين حول النشوء والترقي، وقد حذف إجابته لاحقاً حيالها، قائلاً لي بلذعته الساخرة: بأنكم لم تصلوا بعد ولم ترتقوا لفهم هكذا نظرية!!.

عموماً فقد كتبت في مقدمتي لمكاشفاته بما ستطالعونه عن أجواء الحوار بما يغني عن تكراره هنا، مختتماً بشكري لهذا الرجل المتقدم في أفكاره وأطروحاته والذي أكرمني بحوار عميق.

*****

وآتي أخيراً لأصعب مكاشفة مرت عليّ وسببت لي صداعاً بما لا أنساه، من بداية الإعلان عنها حتى نشر آخر حرف فيها، وقصدت بها مكاشفات الدكتور هاشم عبده هاشم رئيس تحرير صحيفة (عكاظ)، العصامي الذي استطاع أن يحفر اسمه في تاريخ الصحافة السعودية، وتدرج فيها من أسفل سلمها حتى اعتلى رئاسة تحرير صحيفة (عكاظ) وكان بالطبع مهندس نجاحها.

التقيته أثناء مأدبة أقامها الوجيه المعروف عبدالمقصود خوجة للشيخ حسن الصفار في داره العامرة بحضور نخبة متميزة من الأدباء والإعلاميين، ولم أكد ألمح

د. هاشم حتى انفلتُّ إليه، وجلست بالقرب منه محاولاً فتح حوار تعارف والإفادة من بعض نصائحه، وقد سمعت قبلاً ممن عمل معه بتحفظه الشديد وانغلاقه الاجتماعي ورفضه الدائم لأية مشاركات إعلامية، وفاجأني بتهنئتي على مكاشفات حسن الصفار مفيداً بأنه قرأ كل حلقاتها، وقد أبدى إعجابه بها وبقيمتها الفكرية، فاهتبلتها فرصة، وقد بوغتُّ بحديثه، وبادرته من فوري: وطالما كان هذا رأيك دكتور هاشم في مكاشفات، فليتك تكرمني بالموافقة على أن تكون ضيفاً عليها، لأنني أعتبرك فعلاً مهندس نجاح صحيفة (عكاظ)، وبي نزوع شديد لكشف تلك التجربة التي خضتها وتقديمها وحفظها للأجيال الصحافية. تفاجأ د. هاشم تماماً بهذا الطلب وردّ عليّ بما تمليه المجاملة التي تقتضي إجابة عامة، وشكر لي على حسن الظن به، بيد أنني كررت عليه الطلب ملحّاً ومبدياً رغبتي في كشف تجربته مع (عكاظ)، وبعد أن سبح في تأمل عميق، أجابني: إن كنت ترى يا عبدالعزيز في تجربتي المتواضعة ما يستحق الرصد والتوثيق فلا مانع عندي، وخذ وقتك في الإعداد.

بدأت اتصالاتي وقراءاتي لبعض نتاجه وكتبه التي لم أفد كثيراً منها بقدر ما أفدت من جمهرة كبيرة تقف كلها بلا استثناء ضد الرجل وطريقة إدارته ومنهجه المهني، وقد اتصلت بكثير من محرريه ومديري أقسامه وبعض أعضاء مجلس إدارة (عكاظ) وبصحافيين عملوا معه وهربوا من صرامته.. غير أن الأغرب في المسألة هو أن بعض معارضيه تطوعوا من تلقاء أنفسهم واتصلوا بي لتزويدي بمعلومات عن بعض الحوادث وعن تاريخه، وقدموا لي وثائق بسبب موقفهم المعارض منه.

عموماً خرجت من مرحلة إعداد الأسئلة والإلمام بالرجل وفكره بأن لضيفي محبين قلة وتلامذة لا يعترفون بفضله، وأعداء من كل الاتجاهات والتيارات، وقد تلبسني الشعور البشري وأنا أتلقى حفيّاً وسعيداً هذا الكمّ الوافر من المعلومات، وكنت فيما سبق أمضي الأيام المرهقة والاتصالات المضنية للوصول إليها..

القصة لم تنته مع مكاشفات د. هاشم، إذ فتحت أبواب جهنم بمجرد الإعلان عن المكاشفة معه، وانقلبت الدنيا رأساً على عقب، واعترض بعض المؤثرين وغيرهم على نشر (مكاشفات) لمثل هذا الرجل الذي لطالما وقف ضد الصحيفة وحاربها.. ولا أريد أن أستفيض في تلك الدوامة والمتاهة التي لم أعرف فعلاً إلى الآن من كان وراءها؟ وقد تلقاها نيابة عني د. فهد عقران بكل شجاعة أدبية ونبل، وأصرّ على نشر المكاشفات، وقد انتهى بنا الأمر إلى نشرها في الصحيفة الأم وليس في ملحق (الرسالة) بما جرت العادة.

ظللنا لمدة أربعة أسابيع عجيبة في تجاذبات دراماتيكية، وصداع وشكاوى واحتجاجات، لتصل التراجيديا على هامش هذه المكاشفات ذورتها بتعيين معالي الأستاذ إياد مدني وزيراً للإعلام، وقد تطرقنا إليه في المكاشفات من زوايا شتى. عموماً.. لم يصدق الجميع خلا القارئ أن تنتهي حلقاتها لنتنفس الصعداء.

من جهة أخرى تفاعل كثيرون معي، سواء من الكتّاب أو من مديري تحريره، وطلبوا مني أن يتداخلوا مع هذه المكاشفات، وعندما طلبت منهم بعد انتهائها تهربوا، وصارحني أحدهم بأنهم يخشون غضبته وسخطه، بل حتى أولئك الكتبة ممن أطلب منهم عادة إتحافنا برؤاهم اعتذروا بشدة بالرغم من تفاعلهم الكبير مع المكاشفات خشية حساسيته من النقد بزعمهم، لذلك ستقرؤون بضعة تعقيبات قليلة على مكاشفات د. هاشم..

نهاية، أعترف بأنني أحد المعجبين بمهنية الرجل وعصاميته، وقد سطرت رأيي فيه بمقدمة مكاشفاته، جازماً بوجهة نظر خاصة بأنه أفضل رئيس تحرير مهني مرّ حتى الآن على الصحافة السعودية بحسب إحاطتي البسيطة، غير أنني من جهة أخرى أجزم بأن سعادته لم يوفَّق في اختيار توقيت تقاعده من صاحبة الجلالة، فذلك التوقيت إلهامٌ وتوفيق يهبه الله لمن يشاء من عباده الناجحين.. فأسوأ ما يختتم به الرجل الناجح أياً كان هو عدم اعتزاله فنه وهو بقمة عطائه وتألقه،

ليترسخ في صورة إيجابية بذاكرة المجتمع وأبناء المهنة، وظني أن سعادة الدكتور هاشم عبده هاشم فاته توقيت ذهبي لتقاعده قبل انتخابات هيئة الصحافيين السعوديين، وهيئة الصحافيين الخليجيين.

عموماً كان ضيفي أحد ثلاثة ممن أعجب بهم كاتب السطور وتأثر بعطاءاتهم في بعض مراحل عمره، وما زال يرى أنهم لم يوفقوا في اختيار توقيت اعتزالهم، وأولهم كان لاعب الكرة الشهير ماجد عبدالله، صاحب الهدفين الأسطوريين في مرمى نيوزلاندا والصين، وثانيهم وزيرنا وأديبنا الكبير د. غازي القصيبي وقد تاه مجده الوزاري مع أضابير البطالة وسخط الشباب وبيروقراطيات وزارة العمل، وثالثهم ضيفي الكبير الذي أشكر له في نهاية هذه المقدمة تجاوبه وخروجه عن رتمه الهادئ ومنهجه العازف عن أية حوارات كي يستجيب لطلب أخيه الصغير، زاعماً بأنني أفلحت في رصد بعض تأريخ (عكاظ) وسرّ نجاح رئيس تحريرها.

*** مدير تحرير صحيفة (المدينة)**

مشرف ملحق (الرسالة) الإسلامي

جدة - ١/ ١/ ١٤٢٦ هـ

obeikandl.com